ما معنى "والدة الإله؟"

إنّ مريم، أمّ يسوع، كانت متعمّقة في العهد القديم والتّقليد العِبريّ. فعندما روى العهد الجديد سيرتها، ذكر أنّها كانت تستشهد بآيات من الكتاب المقدّس وتطبّقها في حياتها اليوميّة، كما يتّضح ذلك ممّا قالته في زيارتها لنسيبتها أليصابات وعرس قانا الجليل. لكنّ تلك الفتاة المتواضعة كانت ولا تزال موضع تساؤلات كثيرة. وسنحاول في هذه النّبذة أن نجيب عن بعضها، مستندين في ذلك إلى النّصوص الانجيليّة كما فهمها التّقليد الكنسيّ:

والدة الإله

أوّل مَن دعاها بهذا اللّقب نسيبتها أليصابات حيث قالت: "مِن أين لي أن تأتي أمّ ربّي إليّ؟" (لوقا 1: 43) وكلمة "الربّ" باليونانيّة كانت اللّفظة الشّائعة للدلالة على الله. فعندما نقول إنّ مريم هي "والدة الإله"، لا نعني بطبيعة الحال أنّها سبقت الله والثّالوث القدّوس في الوجود، بل أنّها أم يسوع. ذلك أنّ الرّسول الإنجيليّ يوحنّا يعلّمنا أنّ كلمة الله، أي الله (إذ لا فرق في الألوهة بين الله وكلمته)، صار جسدًا أي إنسانًا، وهو يسوع المولود من مريم. فهي تستحقّ إذن لقب "والدة الإله". وهو لقب عريق في القدم يرجع إلى سنة 200، كما تمّ استعماله أيضًا للدّفاع عن ألوهة يسوع المسيح في مجمع أفسس عام 431.

الدّائمة البتوليّة

يتساءل كثيرون لماذا تسمّى مريم "دائمة البتوليّة" طالما أنّ يسوع كان له "إخوة وأخوات" (متّى 13: 55). وتفسير ذلك أنّ اللّغة الأراميّة التي كانت شائعة زمنَ السيّد المسيح، تستعمل لفظة "أخ" لكلّ قريب. ويرى المسيحيّون الشّرقيّون أنّ يعقوب "أخا الربّ" (غلاطية 1: 19) كان ابنًا ليوسف من زوجة سابقة، وأن "إخوة يسوع" الباقين إنّما هم مجرّد أقرباء. والتّقليد الكنسيّ يؤكّد أنّ مريم طاهرة جسديًّا وروحيًّا ومنزّهة عن كلّ عيب. كما يقول إنّ مريم قُدِّمَت للربّ منذ طفولتها وأنّها نَذَرَت طوعًا بتوليّتها الدّائمة لله. وبعدما حملت كلمة الله في مستودعها لم تَصِر إلى رجل آخر. فبتوليّتها هي في الواقع عفّة روحيّة تجلّت جسديًّا بعفّة دائمة. وحملت بمعجزة إلهية، بقدرة الرّوح القدُس (لوقا 1: 35)

منزّهة عن كلّ عيب

وُلِدَت مريم لتحمل الله، أي كان الهدف من وجودها أن تصير أمّا لله الكلمة على نحو فريد. وبما أنّها حملت يسوع المسيح، حكمة الله، في جسدها، لَزِمَ أن تكون منزّهة عن الخطيئة. "الحكمة لا تدخل النّفس السّاعية إلى الشرّ ولا تسكن الجسد المَدِين للخطيئة" (حكمة 1: 4) فنزاهة مريم هبة خصّها الله بها، فتلقّتها بملء حرّيتها وصانتها بنعمة الله. فلا أحد يُصان من الخطيئة إلاّ بنعمة الله. ومريم، كأيّ منّا، هي بحاجة إلى الله ربًّا ومخلّصًا. ونحن نؤمن أنّ مريم قبلت نعمة الخلاص من الله وتعاونت معه بكامل حريّتها واختيارها. لقد نالت منه نعمة خاصّة وساهمت في صيانتها مساهمةً تامّة. لذا اعتبرَ التّقليد الكنيسيّ مريم منذ القِدَم نموذجًا للكنيسة التي يقول فيها القدّيس بولس "إنها مقدّسة، نقيّة، لا عيب فيها، ولا غضن ولا شيء مثل ذلك." (أفسس 5: 26)

انتقالها إلى السّماء

التّقليد الكنسيّ يعلّمنا أيضًا أنّ مريم انتقلت إلى السّماء. وتعود هذه العقيدة إلى أواخر القرن الرّابع، حيث كانت مريم تُعتبَر علامة لإنجاز الوعد بأننا عند مجيء الربّ، سنُختطَف جميعًا معه إلى السّماء (1 تيسالونيكي 4: 13-18). وهو أمر غير مستحيل، فقد جاء في الكتاب المقدّس أنّ أخنوخ وإيليّا نُقِلا إلى السّماء، وأنّ أخنوخ سلك مع الله بسلامة القلب (خروج 24: 5). وجاء في سفر يسوع بن سيراخ: "أخنوخ أرضى الربّ فنُقِل وهو عبرة لتوبة الأجيال." (44: 16) كذلك مريم في مجدها هي مثال لنا.

ممتلئة نعمة

عندما نُقِل الكتاب المقدّس إلى اللغة اللّاتينيّة عام 385 تُرجِمَت الآية الواردة في لوقا 1: 28 بتعبير "ممتلئة نعمة" ، أمّا النصّ الأصليّ اليونانيّ فيقول "مُنعَم عليها إنعامًا تامًّا". كما أنّ التّرجمة الانكليزيّة لصلواتنا اعتمدَت التّعبير الشعبيّ الشّائع لأنّه يجوز حقًّا أن نعتبر مريم العذراء ممتلئة نعمة. فقد "غمرَنا الله في المسيح بكلّ بركة روحيّة" (أفسس 1: 3) ويواصل بولس فيقول "إنكم تمتلئون من كلّ مِلء الله" (3: 19). ومريم، إذْ حملت ابن الله في مستودعها، امتلأت ولا شكّ من كمال النّعمة بهبة مجّانيّة من الله.

يا والدة الإله الفائقة القداسة خلّصينا

كيف نبرّر هذا الدّعاء؟ نحن المسحيّين نؤمن "...أنّ الوسيط بين الله والنّاس واحد، الإنسان، يسوع المسيح، الذي بذل نفسه فداءً عن الجميع." (1 تيموثاوس 2:5-7). لكنّنا نؤمن أيضًا أنّه كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بأمّه مريم. ويقول النّبي ميخا في الشّعب اليهودي: "يتركهم الله إلى حين تلد الوالدة" (5: 2). وقد جاءت هذه الآية مباشرةً بعدما تنبّأ ميخا بأنّ المسيح يولد في بيت لحم. وبالتّالي فإنّ نعمة الله المخلِّصة مرتبطة بمريم التي ولدَت يسوع. وعليه فمريم هي أداة الخلاص.

إنها تلقّت نعمة الله المخلِّصة، وتعاونت معها بحبٍّ تامّ، غير أنّ المبادرة أتت من الله لا منها. كذلك عندما يستعملنا الله أداةً لمنح نعمته، فانّ دورَنا لا ينتقص مقامَ المسيح، بل ينحدر منه لبناء جسده الذي هو الكنيسة. "نحن عاملون مع الله" (1كورنثس 3: 9) وبما أنّنا متّحدون به، فنحن نشاركه في عمَل الفداء. ومريم تساهم في هذا العمل عينه، إنّما بنوع فريد خاصّ.

ومريم شفيعة مقتدرة، نظرًا لاتّحادها بالثّالوث القدّوس. فقد كانت حياتها اتّصالا حميمًا بالله، فشاء الله أن يستعملها على نحو خارق العادة. فمنذ بدء الكنيسة ومريم أمٌّ لنا جميعًا لأنّنا أعضاء في جسد المسيح ابنها. وقد رأى يوستينوس الفيلسوف (+165) في مريم نموذجًا للكنيسة. كما أنه، مع مَن تلاه من الآباء، كالقدّيس إيريناوس، تلميذ القدّيس پوليكرپوس ، الذي كان هو ذاته تلميذًا للرسول يوحنّا الإنجيليّ، مجمعون على اعتبار مريم حوّاء الجديدة. فكما أنّ المسيح هو آدم الجديد، وسيّد الخليقة الجديدة (1 كورنثوس 15: 45-49) كذلك مريم هي حوّاء الجديدة التي نقضَت خطيئة حوّاء الأولى. فحوّاء الأولى عصَت أوامر الله فجلبَت الخطيئة والموت إلى العالم.

أمّا مريم، حوّاء الجديدة، فصدّقَت رسالة الله وأطاعته فجلبَت الخلاص والحياة إلى العالم بابنها يسوع المسيح الذي سحق رأس الحيّة. وينظر الآباء القدّيسون إلى مريم كما كان بطرس وبولس ينظران إلى سارة (غلاطية 4: 21-31 و 1 بطرس 3: 6)

وأوّل دليل تاريخيّ على طلب المسيحيّين شفاعة مريم العذراء يرجع إلى حوالى عام 200. والواقع أن قانون الإيمان النّيقاوي الذي يأخذ به جميع المسحيّين قد تأثّر كثيرًا بقانون الإيمان الذي تسلّمه القدّيس غريغوريوس الصّانع العجائب بمعجزة من يد مريم حوالى العام 260.

وهكذا يتّضح أن الكنائس الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة على السّواء كانت دائمًا تَكُنّ أعظم التكريم لمريم، والدة الإله. غير أنّ بعض المؤمنين أساؤوا فهم مكانتها الحقيقيّة، كما أساؤوا فهم كثير من الأمور الأخرى. فمريم ليست إلٰهيّة، ولا يمكن أن تضاهي الله. بل هي مثلنا تشارك في الطبيعة الإلٰهيّة، لكن على نحو أعمق وأكمل، لأنّها - بفضل الله وتعاونها التّام مع نعمته - أوثق منّا اتّحادًا بطبيعة الله. لذا نكرّمها ونعتبرها باكورة الخليقة ونتويجها وأعظمها إرضاءً لله وشفاعةً لديه.

والدة الإلٰه: Theotokos

مكتب الخدمات التربويّة لأبرشيّة نيوتن الملكيّة

http://melkite.org/

الصّورة مقتبسة من مجلّة "الحكمة/صوفيّا "
الرّسميّة لأبرشيّة نيوتن الملكيّة